مدخل في البناء البديل [3/8]: من أين نبدأ؟ مفهوم 'الإنسان العابد' في الاقتصاد

10-1-2005

ktraouli@yahoo.fr

كما يتجلى الإسلام في الدورة الاقتصادية ويحدث فيها انقلابا كليا (وإن كان متدرجا) في مستوى العلاقة الحساسة بالمال، والتي تمثل وتد العملية الاقتصادية. وهو ما يظهر في إشكالية الربا وحرمته الشرعية التي تسبغ على دنيا المعاملات فقها آخر وسلوكا مغايرا وطرحا جديدا وفريدا، ولّد عمليات

بقلم د . خالد الطراولي

يقول الله عز وجل "وما خلقت الإنس والجن إلا ليعبدون" [الذاريات 56]. يقول الألوسي في تفسيره لهذه الآية[ ]: "...كان خلقهم على حالة صالحة للعبادة مستعدة لها حيث ركب سبحانه فيهم عقولا و جعل لهم حواس ظاهرة وباطنة إلى غير ذلك من وجوه الاستعداد..."، ويقول محمد الطاهر بن عاشور في التحرير والتنوير[ ] تعقيبا: "...وأن تكاليف الله للعباد على ألسنة الرسل ما أراد بها إلا صلاحهم العاجل والآجل و حصول الكمال النفساني بذلك الصلاح، فلا جرم أن الله أراد من الشرائع كمال الإنسان وضبط نظامه الاجتماعي في مختلف عصوره وتلك حكمة إنشائه فاستتبع قوله "إلا ليعبدون" أنه ما خلقهم إلا لينتظم أمرهم عند حدود التكاليف التشريعية من الأوامر و النواهي، فعبادة الإنسان ربه لا تخرج كونها محققة للمقصد من خلقه وعلة لحصوله عادة ".

فهذه الآية تحدد الهدف الأسمى لوجود الإنسان، وهو العبودية لله التي تلتقي وتنسجم مع كل مخلوقات الكون. وهذا يعني أن الفضاء الإنساني هو فضاء عبودي بما يعنيه المفهوم من شعيرة وسلوك، وأنه يحوي كل الفضاءات الأخرى، من اقتصادي واجتماعي وسياسي و ثقافي. وأن هذه الفضاءات يجب أن تُهيأ و تُحدد و تُبنى من أجل تيسير وإعانة الإنسان على تحقيق عبوديته الكاملة لله. هذه العبودية التي تتمثل في شعيرة موصولة بالله، وسلوك وتعامل مرتبط بالناس.

فالفضاء السياسي يجب أن يرعى حرية هذا الفرد، وتأكيد وحدانية عبادته لله، ورفض كل إشراك علني و سري، مباشر أو غير مباشر، فالمعبود ليس في الأرض ولكن في السماء، ولا تمثل له في الوحدانية والإطلاق، فالاختلاف والتنوع صفة العباد، وتعدد رؤاهم وأفكارهم ونسبيتها ملازم لصيرورتهم.

والفضاء الثقافي يجب أن يحط من التقاليد والعادات المميعة لهذه العبودية، وأن يسعى إلى تأكيد دور العلم والتعلم في إنجاح هذه العلاقة، فلا عبودية بجهل ولا علم بدون هدف رباني.(الآية: "فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون") [التوبة 122].

والفضاء الاجتماعي يجب أن يحقق للإنسان سكينته الداخلية وراحته الخارجية، عبر توطيد عرى الحياة العائلية وعلاقات التكافل والتودد بين الأفراد والمجموعات وعبر الأجيال. أما الفضاء الاقتصادي فيجب أن يمثل ريادة و أسبقية الإنسان العابد على الإنسان المستهلك أو المنتج.

* العبودية مسار وهدف:

فالعبودية استخلاف وإعمار وشعائر، وتمثل هذه الأخيرة محطة هامة لانطلاقة التمكين ومواكبته وتشكيل هدفيته الأسمى. فالطقوس والشعائر تمثلان إحدى الخاصيات الهامة للمشروع العبودي بما ينجر عنهما من تأثير مباشر وغير مباشر في إنجاحه أو سقوطه.

وليس اعتباطا أن تكون الشعائر الإسلامية من صلاة و صيام وحج وزكاة ودعاء وأذكار تصاحب نشاط الإنسان في كل أوقاته وحالاته. فالسلوك والشعائر يشكلان عصبا هذا الدين، ويمثلان وجهان للعبادة التي تحدد الهدف الأسمى للوجود الإنساني. فالعبادة شعائرية طقوسية، بما تمثله من علاقة مباشرة مع الله في ذكره وتوحيده وتمجيده. والعبادة سلوكية، بما تنتجه من امتثال تعاملي لأمر الله، فهي عبادة غير مباشرة عبر المعاملات البشرية. لهذا فالتاجر الصدوق في الجنة مع الأنبياء والصالحين[الحديث]، وكل أنواع الأخلاقيات التعاملية في كل الفضاءات الإنسانية (ثقافية/سياسية/ اقتصادية/اجتماعية) تمثل هذه العبادة السلوكية. وهذان الوجهان للعبادة تربطهما علاقة تواصل وتكامل وتأثير متبادل، فالإنسان العابد هو العابد طقوسا وسلوكا، "فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون" [الجمعة 9]. وتُظهر هذه الآية أسبقية الشعيرة ومصاحبتها للسلوك في كل محطاته، حتى تكون الدافع والمراقب والضامن لنجاحه، فترتقي به إلى مستوى العبادة. وهذا ما عناه الإمام الشيباني عند تعرضه لهذه الآية بقوله " فجعل (الله) الاكتساب سببا للعبادة"[ ].

وتعطي هذه الثنائية وهذا التلاحم بين الحالتين الإنسان العابد، المستوى الأمثل والحالة الصحيحة للإنسان المسلم، لتصبح منهجا للحياة في كل أطراف الفضاء الإنساني المتنوع. فالعبادة الشعائرية تهدف إلى تمتين الارتباط والعلاقة بين الإنسان وربه وتحقيق الخضوع التام والدينونة الشاملة لله وحده. كما تسعى إلى إقامة "حكومة الضمير" وتربية الروح الاجتماعية لدى الفرد وتنمية سبل التعاون والتضامن وتنزيل قيم العدل والمساواة والحرية في المجتمع.

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر [الآية]، والصوم يدفع الفرد إلى عدم نسيان المحتاجين والمعوزين والمهمّشين. والزكاة تفرض على المجتمع تقاسم ثمار النمو وتطهر النفس من الأنانية وتروضها على حب العطاء والمشاركة. والحج ييسر وحدة الأمة واتفاقها ويحدث في الأنفس مشاعر العدل والمساواة وهو يجسد المسارات النبوية في مناسكه للخروج بالإنسان من مأزقه الحضاري[ ].

وهذا يعني في المجال الاقتصادي أن الدين في جانبه السلوكي والشعائري يصبح الأداة والمصفاة والموجه للعملية الاقتصادية وهدفها الأسمى الذي تُحدَّد وتُنظَّم على ضوءه كل أطوارها. حيث يصبح النشاط الاقتصادي من استهلاك وإنتاج واستثمار حالة عبادية في حقيقتها ومسارها وفي هدفها.

* الإسلام والتنمية رحلة الشمولي والخصوصي:

يمثل الإسلام في المطلق إطارا أخلاقيا وقيميا يساعد ويدعم التمثيلية الأخلاقية داخل المنظومة الاقتصادية، فهو يحميها ويؤطرها و

يسحبها عن مستنقعات الرذيلة والقيم الهابطة من محسوبية وغش وظلم واستكبار واستعباد واستحواذ واستغلال، وهو ينشأ أيضا بعض الأدوات الاقتصادية التي تعطي للفعل الاقتصادي تميزا جديدا يجعله في طرح مغاير لما أنجبته النظرية الاقتصادية المهيمنة في مستوى الاستثمار والإنتاج والاستهلاك، ومثال ذلك عملية الوقف في الإسلام وما يتبعها من عقلية وسلوك ونتائج اقتصادية مخالفة للمطروح.

كما يتجلى الإسلام في الدورة الاقتصادية ويحدث فيها انقلابا كليا (وإن كان متدرجا) في مستوى العلاقة الحساسة بالمال، والتي تمثل وتد العملية الاقتصادية. وهو ما يظهر في إشكالية الربا وحرمته الشرعية التي تسيغ على دنيا المعاملات فقها آخر وسلوكا مغايرا وطرحا جديدا وفريدا، ولّد عمليات اقتصادية في مستوى الاستثمار لم يعهدها العالم الاقتصادي في مستواها النظري والتطبيقي، أو مرّ عليها مرور الكرام ونبذها تاريخا وجغرافيا. وهذا ما يظهر في عمليات مثل المضاربة والمرابحة والاستصناع في علاقة المنتج بالمستهلك، أو في علاقة رب المال مع المنتج.

أما في المستوى الخصوصي النسبي والإجرائي، فزيادة على هذه الأبعاد العالمية، فإن جانب المرجعية والهوية يدعمان دور الإسلام الحاضن والدافع للعملية الاقتصادية والتنموية. فلا يقع إسقاط للنظرية وتحدث القطيعة بين الإرسال والالتقاط، فيكون النموذج والبرنامج في واد، تحمله هوية وطموحات وهموم أقوام آخرين، والإطار المنزّل فيه في واد آخر بما يلتحفه من تاريخ وعادات وتقاليد صبغت أمسه ويومه وترنو إلى التأثير في غده.

إن هذا الإطار العقدي والثقافي لا يمكن إغفاله، فهو الوسط الطبيعي الذي يتحرك فيه مواطن هذه الديار تاريخا وجغرافيا والذي يدفعه للبحث عن مصالحه ومصالح من حوله مجتمعا وأفرادا.

و سوف نقوم في الأسطر التالية بالتركيز على الجانب الاقتصادي الذي يمثل محور هذه الورقات، لهذا سنحاول عبر فرضيات معينة بناء نسق اقتصادي ينسجم مع هدفية العبودية و تنزيلها في واقعها المعيشي، لنخلص بعدها إلى توصيات و تأكيدات نظرية لهذا البناء الاقتصادي.

- يتبع -

للعودة للأعلى